

الإستراتيجية الخطابية في الخطاب القرآني مقارنة نصاؤلية لخاتمة المكنون اللغوي

أ/مدور محمد

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مدخل:

اللغة وسيلة تواصل بين المتخاطبين ، يقوم المتكلم بدور المرسل ، ويقوم المخاطب بدور المتلقي ، وتتضمن اللغة محتوى الرسالة ، ويضاف إلى ذلك عنصر آخر هو الطريقة ، والمراد بها طريقة التوصيل أو تبليغ الرسالة .

ويرى طه عبد الرحمن في كتابه : **اللسان والميزان** أن "عملية التواصل تقوم على جانبين هما قواعد التبليغ ، وقواعد التهذيب."

أما قواعد التبليغ فيمثلها السياق اللغوي ، وأما قواعد التهذيب فهو مما يلزم أن تنضبط بها قواعد التبليغ ، وتحدد وجوه استقامتها الأخلاقية .

لقد عرف المبدأ التداولي الأول في التخاطب باسم (مبدأ التعاون) ، وورد هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة عند الفيلسوف الأمريكي **بول غرايس Paul Grice** إذ ذكره لأول مرة في دروس بعنوان : **محاضرات في التخاطب** .

ولقد أريد بالقواعد التخاطبية أن تنزل منزلة الضوابط التي تضمن لكل مخاطبة إفادة تبلغ الغاية في الوضوح ، بحيث تكون المعاني التي يتناقلها المتكلم والمخاطب معاني صريحة وحقيقية ، إلا أن المتخاطبين قد يخالفان بعض هذه

القواعد ، فإذا وقعت هذه المخالفة ، فإن الإفادة في المخاطبة تنتقل من ظاهرها الصريح والحقيقي إلى وجه غير صريح وغير حقيقي ، فتكون المعاني المتناقلة بين المتخاطبين معان ضمنية ومجازية ، فإن اتبعنا القواعد المتفرعة عن مبدأ التعاون حصلنا على فائدة قريبة هي ما سماه الأصوليون : **"بالمندوق"** وإن خرجنا عن هذه القواعد حصلنا على فائدة بعيدة هي أقرب إلى ما سماه

الأصوليون : **بالمفهوم أو (المسكوت عنه)** .

مفهوم استراتيجية الخطاب :

ينتج المتكلم خطابه بمراعاة السياق ، إذ لا خطاب بمعزل عن سياق معين ، كما لا يتجلى الخطاب دون استعمال العلامات المناسبة . ويوصف الخطاب بأنه نوع من السلوك ، فقد يوصف بالسلوك المتأدب أو غير ذلك من الأوصاف . والمتكلم يتبع نماذج من السلوك العام والمتوقع داخل الجماعة ، ويتجلى هذا التنظيم عند التلفظ بالخطاب في ما يسمى باستراتيجية الخطاب ، وهذا يعني أن الخطاب المنجز يكون خطابا مخططا له ، بحيث يختار المتكلم الإستراتيجية المناسبة التي تستطيع أن تعبر عن قصده ، وتحقق هدفه بأفضل حالة . ويكون معيار السياق هو الفيصل في استحسان استراتيجية معينة . وتتدخل عناصر السياق الاجتماعية في تحديد استعمالات اللغة ، وفي انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب انحسار البعض الآخر ، مثل استعمال استراتيجية التأدب مقابل استراتيجية الجفاء ، أو استراتيجية المراوغة التي يمكن تسمية خطابها تأدبا بالخطاب الدبلوماسي⁽¹⁾ .

إن المتكلم عادة ينطلق في بناء خطابه من مقومات مقامية كثيرة ، وبالتالي يعدل عن الأسلوب المباشر إلى أسلوب آخر مراعى فيه كل الظروف المحيطة ، وعلى المتلقي أن يستحضر جميع هذه الظروف ، لينطلق من هذا الأسلوب الظاهر (البنية المنجزة) إلى المقاصد الكامنة . وإذا كانت الخطابات هي إنجاز للأفعال اللغوية في الأساس بما في ذلك تحديد الإشارات والتعبير عن المقاصد ، فإن كيفية إنجازها وتوظيفها في السياق هو ما يحدونا إلى دراسة اللغة في استعمالها دراسة تداولية تعنى بكيفية إنتاج الخطاب .

التوجيهات العامة في قوله تعالى : (اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل 125] كما

حث القرآن الكريم على إبداع العلاقة بين طرفي الخطاب بالتلفظ بالخطاب ذاته ، منها قوله تعالى : (

اَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٦٦﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٦٧﴾) [طه 44]

إذ أمرهما الله باللين له في الكلام .

وقد أورد طه عبد الرحمن في كتابه (اللسان والميزان) مبدأ تداوليا سماه (مبدأ التصديق) ومن أبرز صوره مطابقة الفعل للقول . ثم قام بتفريع قاعدتين من هذا المبدأ هما : قواعد التواصل ، وقواعد التعامل .⁽⁶⁾

قواعد التواصل :

تتفرع على مبدأ التصديق قواعد مضبوطة نجدها مجتمعة ومفصلة عند الإمام أبي الحسن الماوردي (ت 450هـ) في كتابه (أدب الدنيا والدين) وهي :⁽⁷⁾

- 1- أن يكون الكلام لداع يدعوا إليه .
 - 2- أن يأتي المتكلم به في موضعه .
 - 3- أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته .
 - 4- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم .
- أما في البحث المعاصر فقد حاول الباحثون تعديد هذه الآداب تداوليا لتسهل في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة وفي بنيته اللغوية فأندرجت هذه المحاولات في ظاهرة واسعة هي ظاهرة التأدب .

وقد تناولها بالدراسة كل من (روبين لاكوف Robin Iacoff) و (ليتش Leech) و (براون وليفنسن Brown & Levinson) وما يجمع دراساتهم هو أنهم اتخذوا من مبدأ التعاون عند (غرايس Grice) منطلقا لأبحاثهم . وهو المبدأ الذي يركز عليه المتكلم للتعبير عن قصده ، مع ضمانه قدرة المتلقي على تأويله وفهمه .

وقد جعل غرايس لمبدأ التعاون قواعد فرعية هي : (قاعدة الكم ، والنوع ، والمناسبة ، والكيف (الطريقة))

- ويوافق (غرايس) بقاعدته الفرعية (الكيف (الطريقة) الشرط الرابع من شروط الماوردي .

مبدأ التأدب : صاغت (روبين لاكوف) هذا المبدأ الذي يتصل بالعلاقة بين المتكلم والمخاطب . وقد فرعت لاكوف ثلاث قواعد عن مبدأ التأدب سمتها قواعد تهذيب الخطاب وهي :

- قاعدة التعفف ، - قاعدة التخيير ، - قاعدة التودد .

وتقتضي قاعدتي التعفف والتخيير تجنب التلفظ

فالخطاب هو نتيجة لإستراتيجية معينة ، ولتوليدته ثلاث مراحل هي :

1- إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة .

2- تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة ليتم إختيار الإستراتيجية الخطابية الملائمة .

3- التلفظ بالخطاب .⁽²⁾

والمتكلم دائما يحدد الهدف من خطابه . فتحديد الهدف ينعكس عليه الاختيار . ويتوفر للمتكلم إستراتيجيتان هما :

1- **الإستراتيجية المباشرة :** وهي التي يتوخاها

ليدل على قصده أو ينجز بها فعله اللغوي من خلال دلالتها الحرفية . وهذا النوع هو الذي أشار إليه الجرجاني بقوله : "ضَرَبْتُ أَنْتَ تَصِلُ مِنْهُ إِلَى الْغَرَضِ بِدَلَالَةِ الْفَرْقِ وَحْدَهُ"⁽³⁾

2- **الإستراتيجية التلميحية (غير المباشرة) :**

وهي التي تتجاوز فيها دلالة الخطاب الحرفية ، وإليها أشار الجرجاني بقوله : "وَضَرَبْتُ آخَرَ أَنْتَ لَا تَصِلُ مِنْهُ إِلَى الْغَرَضِ بِدَلَالَةِ الْفَرْقِ وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ يَدُلُّكَ الْفَرْقُ عَلَى مَعْنَاهُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مَوْضُوعُهُ فِي الْلُغَةِ ، ثُمَّ تَجِدُ لَذَلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً تَصِلُ بِهَا إِلَى الْغَرَضِ . وَمَدَارُ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى الْكِنَايَةِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ"⁽⁴⁾ ثم يبين الجرجاني طريقة السامع للوصول إلى معنى المتكلم بقوله : "أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ (هُوَ كَثِيرٌ رَمَادٍ الْقَدَرِ) إِنَّكَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لَا تَقِيدُ غَرَضُكَ الَّذِي تُعْنِي مِنْ مَجْرَدِ الْفَرْقِ ، وَلَكِنْ يَدُلُّ الْفَرْقُ عَلَى مَعْنَاهُ الَّذِي يُوجِبُهُ ظَاهِرُهُ ، ثُمَّ يَعْقِلُ السَّامِعُ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِدْلَالِ مَعْنَى ثَانِيًا هُوَ غَرَضُكَ"⁽⁵⁾

قواعد التخاطب :

يراعي المتكلم نوع العلاقة بينه وبين المستمع في خطابه ، فيرجح دورها في إختيار إستراتيجية دون إستراتيجية أخرى . ومن الظواهر التي تجسد تلك العلاقة ما يسمى بظاهرة (التأدب) في الخطاب 7، إذ يتلفظ في خطابه وفقا لما تقتضيه هذه الظاهرة . وينعكس اعتبار العلاقة بين أطراف الخطاب في تجسيدها وفق ما تقتضيه ظاهرة التأدب بمقادير مختلفة ؛ لأن الملفوظات المؤدية ترمز للعلاقة بين المتكلم وبيننا بوصفنا متلقين . وتتفاضل الخطابات فيما بينها من حيث حضور التأدب مع المرسل إليه وإفصاح المتكلم عما يمكنه له . ونورد فيما يلي عرضا لبعض تجليات ظاهرة التأدب في التراث العربي والبحث المعاصر .

ففي التراث العربي حض القرآن الكريم على مراعاة بعض القواعد التخاطبية صراحة في أكثر من موضع ، وذلك بالدعوة إلى تهذيب القول من خلال

مقابل دلالة الشيء المندس (المحظور) ⁽¹⁶⁾ ويقابله مصطلح (نوا - NOA) الذي يعني نقيض التابو أي الشيء العادي المتاح للجميع والمتداول غير المحظور ⁽¹⁷⁾.

وقد تناول بعض الدارسين ظاهرة المحظور اللغوي منهم : (ستيفن أولمان Sullman) في كتابه الموسوم (دور الكلمة في اللغة) الذي ترجمه د / كمال بشر. فقد تناول المحظور ضمن مباحث الدلالة وكيفية تغير المعنى . وعقد فقرة بعنوان (اللامساس وحسن التعبير) . كما عالج هذه المباحث مؤلفون آخرون منهم : محمود السعران ، وحلمي خليل ، وأحمد مختار عمر . وغيرهم .

أما أحمد مختار عمر فقد تناول هذا المبحث في الفصل المتعلق بمشكلات الدلالة في الترجمة من كتابه : علم الدلالة .

ومما يتفق عليه في علم اللغة الاجتماعي أن البيئة والبنية الاجتماعيتين تنعكسان في اللغة ، وغالباً ما يكون لهما تأثير في بنية المعجم . وقد يكون لقيم المجتمع وأعرافه تأثير في لغته . ويحدث ذلك بطرق متعددة أكثرها إثارة ما يعرف بظاهرة التابو الذي يتعلق بالسلوك الذي يعتقد أنه مخيف أو ممنوع أو غير أخلاقي أو غير مقبول .

إنه بعبارة أخرى يختص بالسلوك المحرم أو المحظور الذي لا يتقبل إعلانه أو الحديث عنه بصراحة ووضوح .

والمحظور اللغوي في الواقع يعني تحريم استخدام كلمات أو عبارات لا يحسن نطقها بالمرّة ، أو يصعب تقبلها وإبقاؤها في الاستعمال ⁽¹⁸⁾.

ولكل لفظ بيئته الخاصة ، إلى جانب تفاوت الألفاظ في درجة التلطف واللامساس . ففي كل اللغات حساسية نحو ألفاظ معينة ، فيوصف اللفظ المتروك بأنه من ألفاظ اللامساس (Tabou) ويوصف اللفظ المفضل من باب التلطيف في التعبير (euphémisme) ⁽¹⁹⁾ . و "كثيراً ما لا ينتبه أصحاب المعاجم والمترجمون إلى هذه النقطة ، فيضعون اللفظ في مقابل اللفظ الآخر ، دون أن يساوا بينهما في درجة اللطف أو اللامساس" ⁽²⁰⁾.

النهى عن استعمال الكلام المحظور :

نهت الشريعة عن القول بالفحشاء ، وعن القول بالإثم والعدوان ، وقد وصف الله عباده الصالحين بقوله : (والذين هم عن اللغو معرضون) [المؤمنون 3] وحث أيضاً على عدم الجهر بالسوء من القول في قوله تعالى : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) [النساء 148] . ونهى أيضاً عن تداول الكلام المنكر واللغو والاستماع إليه فقال : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) [القصص 55] . وذكر الله تعالى من

بالكلام المخرج من جهة ، ومنح المتلقي حريته في التأويل من جهة أخرى ⁽⁸⁾.

وظيفة الإستراتيجية التلميحية :

هي إستراتيجية تعبيرية غير مباشرة ، تُفعل التعاون والثقة ، ويعتمد المتكلم في إنتاج خطابه على توظيف ما لدى السامع من معرفة بالعالم ⁽⁹⁾ . يقول أحمد المتوكل : "أما القوة الإنجازية المستلزمة فهي مربوطة مقامياً ، بحيث لا يمكن تولدها إلا في طبقات مقامية معينة . القوة المستلزمة يتوصل إليها عبر عمليات ذهنية استدلالية" ⁽¹⁰⁾.

وبهذه الإستراتيجية يعبر المتكلم عن القصد بما يغيّر المعنى الحرفي ، لينجز بها أكثر مما يقوله ، مستثمراً في ذلك عناصر السياق . والبنية اللغوية الظاهرة هي مجرد ممر ⁽¹¹⁾ . ومن مسوغات استخدام هذه الإستراتيجية : التأدب في الخطاب مع مراعاة البعد الشرعي أو الاجتماعي أو الذاتي ، أو الابتعاد عن الكذب باستعمال التعريض لقول الرسول (ص) : "إن لكم في المعارض مندوحة عن الكذب" .

ويؤكد (جون سيرل John Searle) أن التأدب يعد من أبرز الدوافع إلى استعمال الإستراتيجية غير المباشرة في الطلب ومنها تجنب المحظور اللغوي . ويحدث لمن يمتلك السلطة أن يراعي مشاعر الآخرين فيلجم ، وهذا يكثر في النصيح والتوجيه .

وقد تناول العلماء هذه الظاهرة في دراستهم ، فقد خصص الجرجاني في (دلائل الإعجاز) فصلاً بعنوان : (في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره) ⁽¹²⁾ . وتناوله السكاكي في (مفتاح العلوم) في (قانون الطلب) تحت عنوان : ضوابط خروج بعض الأفعال اللغوية في عن معناها إلى معان أخرى مثل : الاستفهام والأمر والنهي ⁽¹³⁾ . وعقد ابن قتيبة باباً في : (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) وضرب لكل وجه مثلاً من القرآن الكريم في كتابه (تأويل مشكل القرآن) . وقد تناول ابن جني ذلك في كتابه (الخصائص) . (باب في إقرار الألفاظ على أوضاعها . الأول ما لم يدع داع إلى الترك) ⁽¹⁴⁾.

المحظور اللغوي :

هذا المبحث يعرف عند علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بـ (التابو Tabou) وقد نظروا إليه على أنه نسق أو نظام له مضمون اجتماعي أو ديني . وقد اهتم علماء الاجتماع بهذه الظاهرة التي يعرفها (دوركايم) بأنه تحريم ديني مرتبط باحترام كل ما هو مقدس ...و أنه يلعب دوراً أساسياً فيما يتعلق بالطبيعة الأخلاقية والدينية للفرد ⁽¹⁵⁾.

ومصطلح التابو معرب عن الإنجليزية (Taboo) وعن الفرنسية (Tabou) وأصله بولينيزي (Polynésien) يتضمن دلالتين متضادتين دلالة الشيء المقدس كاحترام الدين والضوابط العليا وسائر القيم في

والبيولوجيا والمواريث. (27)

ويساهم المحظور في توسيع اللغة. وذلك بإثراء حقلها المعجمي بالمفردات البديلة الخالية من الحرج باستحداث مرادفات كثيرة للفظ المحظور، تؤدي إلى نمو ألفاظ اللغة وغنى مفرداتها بالترادف، والاقتراض، والصفة، والنسبة، والاستعارة والكناية... الخ. (28)

ويتضمن القرآن الكريم جملة من المحظورات الدينية. فقد نهى المسلمون عن جعل اسم الله حاجزا عن صلة الرحم وحسن المعاملة والتقوى والإصلاح بين الناس قال تعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ

أَنْ تَبْزُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) [البقرة 222] وقد نهى الله سبحانه جماعة المسلمين أن يخاطبوا رسوله (ص) بلفظة (راعنا) قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا) [البقرة 103] وهذا اللفظ عند اليهود سب وشتم.

و تتطور دلالات بعض الألفاظ، وينحدر معناها بالإستخدام ومرور الزمن مثل كلمة (عصابة) وكانت تعني جماعة من الناس. واستخدمها الرسول (ص) بمعنى جماعة المسلمين في دعائه بالنصر لأهل بدر بقوله: (إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض) ولكنها تعني اليوم في الإستعمال العام جماعة من أهل الشر والإجرام. وقد تتعدد وتجمع بقولهم (عصابات). (29)

المحظورات في التراث العربي:

تناولت كتب اللغة والبلاغة ظاهرة المحظورات اللغوية في باب الكناية. وقد ألف فيها الثعالبي (ت340هـ - 1038م) كتابه (الكناية والتعريض). وأبو العباس الجرجاني (ت480هـ - 1089م) كتابه (كنايات الأدباء وإشارات البلغاء). وأفاض الدارسون في الحديث عن الدوافع التي تدفع المتكلم لاستعمال الكناية.

إن استعمال الكلمات المحظورة أو هجرها أمر تحكمه قيم ومعتقدات وأعراف المجتمع، وغالبا ما يفشل المجتمع في وضع قواعد منضبطة للتحكم فيها، ولكن المطلوب هو أن يقتدي المتكلم بالخطاب القرآني في طريقة التعبير عن تلك الأفعال وما يقرب منها، وفي التنزه عن إيرادها باللفظ الصريح لقول الرسول (ص): (إن الله حيي يكني) فممارسة الجنس أو قضاء الحاجة أمران طبيعيين، ووجه الحظر أن المجتمع يرى معالجهما بعيدا عن الآخرين، ويستتبع الحديث عنهما بصراحة، لما قد يثيره من حرج وتاف. وقد أشار الثعالبي إلى وجوب الكناية عما يستهجن ذكره ويستتبع نشره، أو يستحيا من تسميته أو يتطير منه أو يترفع

صفات عباده: (وإذا مروا باللغو مروا كراما) [الفرقان 72]. وفسر الراغب الأصفهاني هذا المعنى بقوله: "أي كنوا عن القبيح ولم يصرحوا." (21) وجاءت أحاديث الرسول (ص) داعية إلى التأدب في القول قال (ص): (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء). (22)

"وقد روى ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال: (إن الله حيي كريم يعفو ويكني)" (23) ويرفع الفضلاء عن ذكر الفاحش الخبيث، وعن ذكر اللفظ صراحة. قال ابن المعتز:

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر. (24)

فقوله: كان ما كان مما لست أذكره. يحتوي جزئين هما: كان ما كان - لست أذكره. فالجزء الأول يحيل إلى مجهول باستعمال إحدى أدوات الإبهام وهي الاسم الموصول (ما)، التي سوغت تكرار كلمتين جنورهما ووزنهما واحد. وقد عفا لسان الشاعر عن ذكر ذلك المجهول، ثم أكد القول الأول بحجة أخرى هي: الامتناع عن الذكر بقوله: لست أذكره، فالخطاب ينطوي على أمر هام لم يرد الشاعر أن يفصح به، ليكون عدم الإفصاح أقوى من الإفصاح. فالمبدأ القائم هو: عفة المتكلم وحيأؤه، ويمكن أن تكون الصيغة عامة في كل فعل يستحي من التصريح به.

وهناك صنف من المحظور متعلق بالمحظور المقدس. مثل: الدين ورموزه، فيختلف الأمر بين الشعوب اختلافا كبيرا. والمجتمع الإسلامي أكثر تشددا في حظر الإساءة إلى الدين بالألفاظ أو الرسوم أو السينما أو غيرها من أشكال التعبير. وعلنا نذكر ما حدث في بعض الدول الأوروبية من الإساءة إلى الدين الإسلامي ورموزه، وحين ثارت الشعوب الإسلامية على نشر الرسوم والعبارات المزرية في الإعلام، إدعى المسيئون أن ما فعلوه من قبيل حرية الرأي، وأنهم لا يتحرجون من التعرض لدينهم المسيحي ورموزه. (25)

أما المحظور في المجال الأدبي والإعلامي فكان ينبغي أن تراعى الآداب العامة، ومع ذلك جرى جدل طويل حول رواية نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) ومنع نشرها في مصر بدعوى إزديائها بالإسلام ورموزه، وظلت ممنوعة لفترة طويلة. كما ثار أيضا جدل حول رواية (وليمة أعشاب البحر) للكاتب السوري حيدر. وقد اضطرت الهيئات الثقافية لمنع نشرها. (26)

وقضية ترك التصريح إشكالية اجتماعية حضارية لغوية نفسية وتربوية، ولكن الحاجة إلى التعبير عن الفضاء المحظور وحقله المعجمي ضرورة يتطلبها المدرس والأب والأم لدخول التربية الجنسية في البرامج التعليمية من جهة ولأهميتها في علم التشريح

أو نقله يخفف ما ينطوي عليه من الحظر . أو مما لا يليق دون أن ينقص ذلك من قيمتها الدلالية وبإمكان السامع أن يفهم المراد على الفور.⁽³⁴⁾

التحليل التداولي لألفاظ المحظور :

اعتمد السياق القرآني الاستراتيجية التلميحية في التعبير عن الألفاظ المحظورة ، وذلك باستخدام الكناية وعدم التصريح بتلك المعاني ثقة في الكفاءة التداولية للمتلقى. فالمتكلم يتلفظ بشيء ويقصد به غيره . والمتلقى يفهم قصد المتكلم بأنه يقصد غير ما يتلفظ به .

ف قوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة 186] والرفث كناية عن الجماع . والسياق استخدم الأسلوب الخبري في موضع الإنشاء ، وقد يحمل الخبر معنى الأمر للتعبير عن معان لا تتوفر في الصياغة المعتادة . فلو أخذنا بالمنهج التحليلي فنلاحظ من خلال البنية السطحية والبنية العميقة تحول الإنشاء إلى الخبر .

البنية السطحية : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

فعل ماض ← فعل ماض أسلوب خبري .

البنية العميقة : ارفثوا إلى نسائكم .

فعل أمر ← أسلوب إنشائي .

فالسبب القرآني فضل استخدام الصيغة الخبرية محل الصيغة الأمرية وهدفه تحقيق وظائف تداولية كمراعاة حال المخاطب بحذف الفاعل والبناء للمفعول (أحل لكم) . "لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه ألا يقترب بالتصريح بالفاعل"⁽³⁵⁾ ومن ثم فإن الصياغة الخبرية ليست في نفس القوة الإنجازية للصيغة الأمرية .

وفي الآية السابقة استعمل السياق القرآني طريقة التلميح لتحقيق المعاني وتبليغ مقاصد المتكلم ، ومن أشكال التعبير التلمحي استعمال الكناية في الكلام عن الألفاظ المستهجنة . كالتكنية عن العلاقات الجنسية بقوله تعالى : (الرفث إلى نسائكم) وقوله أيضا : (هن لباس لكم) وقوله تعالى : (فالان باشروهن) ، وقوله تعالى : (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد)

وهي استراتيجية غير مباشرة "يعبر بها المتكلم عن القصد بما يغيّر المعنى الحرفي لينجز بها أكثر مما يقوله مستثمرا في ذلك عناصر السياق ، أما البنية اللغوية الظاهرة فهي مجرد ممر."⁽³⁶⁾

ومن مسوغات استعمال الاستراتيجية التلميحية (الأفعال الإنجازية غير المباشرة) مسوغ التأديب في الخطاب كمراعاة البعد الشرعي والاجتماعي ، إذ يؤكد جون سيرل J.Searle : "أن التأديب يعد من أبرز الدوافع لاستعمال الاستراتيجية غير المباشرة في الطلب ومنها : تجنب المحظور اللغوي."⁽³⁷⁾

"وقد تطرق (دوروتي فرانك - D.frank) إلى الوظيفة الاجتماعية للأفعال غير المباشرة ويرى أن من

ويصان عنه بالألفاظ تؤدي المعنى . "ومن ثم فإن المجتمعات الإسلامية أكثر تشددا في حظر الكلمات التي تتصل بالجنس . وعندهم أن الحياء شعبة من الإيمان . ومع ذلك فبعض الألفاظ المحظورة يباح استعمالها في مواقف محددة ، ويقال في ذلك : لا حياء في الدين والعلم."⁽³⁰⁾

وتناولت اللسانيات الحديثة ظاهرة المحظور اللغوي في إطار البحث الدلالي واتجاهاتها النفسية . فقد عرف الباحثون المواقف النفسية من بعض الكلمات ، وأن مجموعات محددة تصنف في إطار الكلمات المحرمة ، وأمكن ملاحظة أن (التابو) اللغوي يجعل بعض الكلمات موضع حرج فلا تذكر في الحديث العادي ، وأهم هذه المجموعات ما يدل على الأمراض الخبيثة ، والوحوش الكاسرة ، وألفاظ الجنس . وفسر الباحثون في علم النفس هذه المجموعات بملاحظاتهم حول ربط الإنسان بين هذه الكلمات وما تدل عليه . فكان النطق باسم الحيوان المفترس استدعاء له يتجنبه الإنسان خوفا من بطشه فيحظره على نفسه أو على غيره ، ويعوض عن ذلك بذكره باسم آخر ، وقد أدت هذه الظاهرة إلى تنوع كبير في أسماء الحيوان المخيفة للإنسان ، وما أكثر تهيبات التعابين في لغات كثيرة . فالعوامل النفسية تكمن وراء تجنب ذكر الكلمات المحظورة بشكل مباشر ، وأحيانا يتم التعبير عنها بكلمات أجنبية⁽³¹⁾ . وحين يعبر عن اللفظ المحظور بلغة أجنبية ، يفقد اللفظ جزءا من قيمته الدلالية ، وهذا ما دفع الناس إلى استعمال الكلمات الأجنبية للتعبير عن المحظور : مثل : (بيت الخلاء . Toilette) والسرطان (Cancer) الخ .

"ويكون اللجوء إلى المضمن في أوانه حين يكون من العسير الإدلاء بالمحتوى المطابق له بشكل بين ، لأنه إما يخالف قوانين اللياقة ، أم أن حقيقته قابلة إلى حد بعيد للنزاع."⁽³²⁾

وأحيانا تبتذل بعض الألفاظ ويمجها المجتمع ويعافها الذوق ، فيقوم الناس بتجديدها وتطويرها ، ويستعاض عنها بأخر من اللغة نفسها أو من لغة أجنبية ، والأسباب الاجتماعية واضحة جدا في تغيير الكلمات مراعاة للياقة ، إذ ليس من اللائق أن يتكلم في أحد المجتمعات عن أفعال معروفة بالفحشاء ، أو بأنها مما يجرح الحياء . "والذي يقطع بكون الكلمة لائقة أو غير لائقة إنما هو العرف ، واللفظ بذاته يختلف حاله في إقليم عنه في الآخر ... وبعض الألفاظ يصاب بما يشبه الحظر على استعمالها في المجتمع ؛ لأن الناس يتشاعمون من ذكرها فيستبدلون بها كلمات أخرى ..."⁽³³⁾

ولا ينحصر الأثر الناجم عن تحريم المفردات في استبدال كلمة مكان كلمة فحسب ، بل يتعداه أيضا إلى تشويه الكلمات الموجودة . فتغيير حرف من الكلمة

الفعالة لإنجاز الأفعال غير المباشرة . فالجانب غير الصريح وغير المباشر سمة مشتركة بين الطرفين الكناية والأفعال غير المباشرة ففي قوله تعالى : ﴿أولامستم النساء﴾ [النساء43] استخدم السياق القرآني الكناية عن العلاقة الزوجية وعبر عنها بالملامسة ، فهو في هذه الحالة لا يقصد المعنى الحرفي المباشر - مع إمكانية تحقيقه - بل يريد المعنى غير المصرح به وهو (الجماع) وعند حصر معنى (لامستم النساء) في (الجماع) لا يكون المتكلم قد أنجز فقط الفعل الإنجازي بطريق غير مباشر ، بل يكون المتلقي قد فهم هذا المعنى ، واقتنع تبعا لذلك بالفعل الإنجازي غير المباشر⁽⁴¹⁾ . "وسمي هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح⁽⁴²⁾ .

معنى صريح مباشر هو الملامسة معنى متحقق غير مقصود

معنى كنائي غير مباشر لم يصرح به هو كناية عن الجماع . المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلا عليه⁽⁴⁷⁾ . فالكناية إذن هي العدول عن التصريح إلى التلميح ، وعليه تكون الأقوال الكنائية أقوالا إضمارية ، وتكون معانيها معان استلزامية . والكناية من المنظور التداولي تعد مظهرا من مظاهر خرق قانون (الكيف)⁽⁴⁸⁾ . إذ المنطوق به غير المفهوم من التعبير الكنائي . وعليه يمكن أن نحلل تداوليا الأمثلة المختارة وفق ما يلي :

بين وظائفها مايلي : تحاشي المحظورات - التحايل على حواجز غير مرغوب فيها - تفادي مطلب غير مبرر أو خلق إمكانيات واسعة تمكن من الإهتمام إلى مخرج⁽³⁸⁾ .

ويقول ستيفن أولمان (Steven Ullmann) عن ظاهرة التلطف في الكلام : "أنه وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه⁽³⁹⁾ .

وتعد الصور البيانية من الأنواع التي تتأني منها الأفعال الكلامية غير المباشرة ، من خلال الاستعارة أو التشبيه أو الكناية . وهناك من اعتبر الكناية هروبا من الواقع ومن اللغة وهي : " نفور النفس من القبيح لأن الكناية في وظيفتها جعلت لتحسين القبيح⁽⁴⁰⁾ .

ويتضح من مفهوم الكناية أنها تعبر عن معنى ما بصورة غير مباشرة مما رشحها لتكون إحدى الوسائل ونوضح ذلك فيما يلي :

العبارة الكنائية
(أو لامستم النساء)

فقول السكاكي : "ذكر ما يلزمه أن الجماع يلزم الملامسة . وقوله : "لينقل من المذكور إلى المتروك⁽⁴³⁾ .

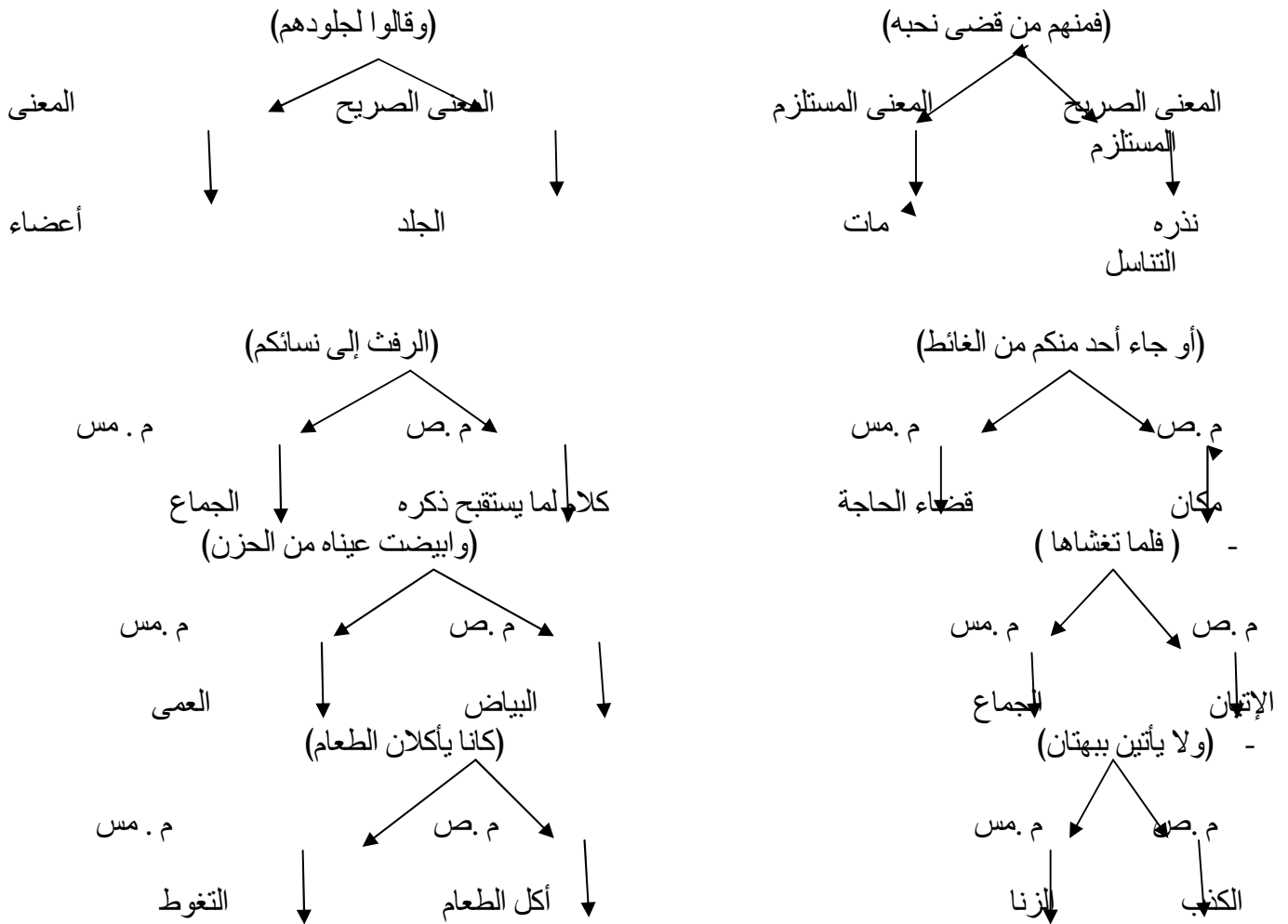
هو الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني .

ولم يغفل العلماء أهمية المقام إذ جعلوا المقولات الكنائية مشروطة باعتبار مقام إنتاجها ، يقول عبد القاهر الجرجاني : "ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم (كثير الرماد) وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة ، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفت بان رجعت إلى نفسك فقلت أنه كلام قد جاء عنه في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد⁽⁴⁴⁾ .

فالواضح أن الوقوف على معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني لا يتأتى إلا بأن يكون المتلقي محيطا بالعلاقات غير اللغوية التي يبنى عليها فهم المعاني الثواني . "وإن ما يدفع المتلقي للبحث عن مدلول ثان هو عدم فائدة المدلول الصريح قياسا إلى المقام الخاص حتى وإن ظل ذلك المدلول مقبولا خارج ذلك المقام⁽⁴⁵⁾ .

وعليه فإن السياق القرآني اختار طريق الكناية لأنها أبلغ من الإفصاح . قال الجرجاني : "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح⁽⁴⁶⁾ .

واستنادا إلى تعريف العلماء للكناية نوضح الأمثلة القرآنية المتعلقة بالمحظور اللغوي . ويعرفها عبد القاهر الجرجاني بقوله : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من



الخاتمة:

وبعد هذا العرض تبين من خلال الصيغ القرآنية نزوع السياق القرآني إلى توظيف الاستراتيجية التلميحية في التعبير عن قضايا المحذور اللغوي . باستخدام الكناية والتلميح تجنباً للإيضاح والتصريح وقديماً قال البلغاء : في الإشارة ما يغني عن العبارة ، وفي التلميح ما يغني عن التصريح .

ويلجأ المتكلمون البلغاء إلى الأقوال المضمرة خشية الوقوع في المحذور، لأن في الكلام الضمني سلامة اللسان وبلاغة البيان . لأن المعاني الصريحة معان مكشوفة والمعاني الثانية معان خفية . فالمتكلم الذي يؤثر الإستراتيجية التصريحية فهو يقصد ذلك ويرغب من خلالها تحقيق أغراض مختلفة كما يفعل ذلك بعض الشعراء والكتاب . أما المتكلم الذي يؤثر الإستراتيجية التلميحية (الضمنية) فهو يخفي وراء

الهوامش:

1 - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 56 .

السياق التلغظي مقاصد وغايات بعيدة تدرك بالتأمل وإمعان النظر معتمداً في ذلك على ثقته في كفاءة المتلقي التداولية من جهة . ومن جهة أخرى يكون المتكلم ملتزماً بمبدأ التعاون .

أردنا من خلال عرض هذه الظواهر اللغوية والنفسية ليكتسب المتكلم به اللياقة وينال البلاغة بجودة العبارة وحسن الإشارة . وبالنسبة لباحث اللغة أن يعي سبب التبديل ويقف على التحول الذي يصيب اللغة مفرداتها وعباراتها والسياقات التي تقتضيها تداولية الخطاب من مراعاة المقام وأحوال المخاطبين وتعديل القوة الإنجازية للخطاب لتوافق المقاصد وتجلي الحقائق . وإن السر في هذه الاستعمالات هي أن كلا من المرسل والمرسل إليه على علم بأن معنى الكلمات التي تلفظ بها المرسل لا تدل حرفياً على ما يريد قوله . وعلى علم بمعرفة من المتكلم .

- 2 - ينظر : نفسه . ص 63 .
- 3 - عبد القاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . ص . 64
- 4 - نفسه . ص 64 .
- 5 - عبد القاهر الجرجاني . مرجع سابق . ص 65
- 6 - ينظر : طه عبد الرحمن . اللسان والميزان . ص 249 .
- 7 - ينظر : أبو الحسن الماوردي . أدب الدنيا والدين . ص 434 و 445 .
- 8 - ينظر : طه عبد الرحمن . مرجع سابق . ص . 240 .
- 9 - ينظر : عبد الهادي ابن ظافر الشهري . مرجع سابق . ص . 369 .
- 10 - أحمد المتوكل . آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي . ص . 21 .
- 11 - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . مرجع سابق . ص . 370 .
- 12 - الجرجاني . دلائل الإعجاز . ص . 66 .
- 13 - ينظر : السكاكي . مفتاح العلوم . ص
- 14 - ينظر : ابن جني . الخصائص . 457 / 2 .
- 15 - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ص . 314 .
- 16 - The New Encyclopaedia Britannica, Volume IX . p 756 .
- 17 - ينظر : محمد كشاش . المحرم اللغوي . ص 18 .
- 18 - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . مرجع سابق . ص . 314 .
- 19 - ينظر : أحمد مختار عمر . علم الدلالة . ص . 265 .
- 20 - المرجع نفسه . ص . 265 .
- 21 - الراغب الأصفهاني . مرجع سابق . ص . 451 .
- 22 - النووي . كتاب الأذكار . ص . 498 .
- 23 - الجرجاني . المنتخب من كفايات الأدباء . ص . 9 .
- 24 - ديوان ابن المعتز . ص . 328 .
- 25 - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . مرجع سابق . ص . 321 .
- 26 - ينظر . المرجع نفسه . ص . 322 .
- 27 - ينظر : محمد كشاش . مرجع سابق . ص 13 .
- 28 - ينظر : نفسه . ص . 13 .
- 29 - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . مرجع سابق . ص . 417 .
- 30 - المرجع نفسه . ص . 321 .
- 31 - ينظر : محمود فهمي حجازي . مدخل إلى علم اللغة . ص . 139 .
- 32 - كيربرات أوركيني . المضمرة . ترجمة ريتا خاطر . ص 512 .
- 33 - رمضان عبد التواب . التطور اللغوي . ص . 204 .
- 34 - ينظر : المرجع نفسه . ص 204 .
- 35 - فاضل صالح السامرائي . معاني النحو . 78 / 3 .
- 36 - عبد الهادي ابن ظافر الشهري . مرجع سابق . ص . 371 .
- 37 - John Searle . Expression and meaning . p 36 .
- 38 - جيلالي دلاش . مدخل إلى اللسانيات التداولية . ص 31 .
- 39 - ستييفن أولمان . دور الكلمة في اللغة . ترجمة : كمال بشر . ص 174 .
- 40 - بلقاسم حمام . الكناية هروب من اللغة . مجلة الأثر . جامعة ورقلة . مارس 2006 .
- 41 - ينظر : علي محمود الصراف . في البراغماتية . الأفعال الإنجازية . ص . 152 .
- 42 - السكاكي . مفتاح العلوم . ص . 402 .
- 43 - تعريف السكاكي للكناية : "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك" .
- 44 - السكاكي ، نفسه . ص . 276 .
- 45 - منال النجار . المقولات البلاغية دراسة مقامية براغماتية . ضمن كتاب التداوليات . ص 571 .
- 46 - الجرجاني . مرجع سابق . ص 62 .
- 47 - نفسه . ص . 60 .
- 48 - شرح قانون الكيف وهو من القوانين المتفرعة عن مبدأ التعاون عند غرايس .